

الفصل في الملل والأهواء والنحل

تعالى قالتا أتينا طائعين فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفيتين والأضراس بهواء يصل إلى أذن السامع فيفهم به مرادات القائل فإذا لا شك في هذا فكل من لا لسان له ولا شفيتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق فلا يكون منه القول المعهود منا هذا مما لا يشك فيه ذو عقل فإذا هذا هكذا كما قلنا بالعيان فكل قول ورد به نص ولفظ مخبر به عن ليس هذه صفته فإنه ليس هو القول المعهود عندنا لكنه معنى آخر فإذا هذا كما ذكرنا فبالضرورة قد صح أن معنى قوله تعالى قالتا أتينا طائعين إنما هو الجري على نفاذ حكمه D فيهما وتصريفه لها وأما عرضه تعالى الأمانة على السموات والأرض والجبال وإبائة كل واحد منها فلسنا نعلم نحن ولا أحد من الناس كيفية ذلك وهذا نص قوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فمن تكلف أو كلف غيره معرفة ابتداء الخلق وأن له مبدئا لا يشبهه البتة فأراد معرفة كيف كان فقد دخل في قوله تعالى وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عندنا عظيم إلا أننا نوقن أنه تعالى لم يعرض على السموات والأرض والجبال الأمانة إلا وقد جعل فيها تميزا لما عرض عليها وقوة تفهم بها الأمانة فيما عرض عليها فلما أبتها واشفقت منها سلبها ذلك التمييز وتلك القوة وأسقط عنها تكليف الأمانة هذا ما يقتضيه كلامه D ولا مزيد عندنا على ذلك وأما ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته فصح أنه لا تبديل لما رتبته تعالى مما أجرى عليه خلائقه حاشا ما أحال فيه الرتب والطبائع للأنبياء عليهم السلام فإن اعترضوا أيضا بقولنا تعالى يصف الحجارة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشيةنا فقد علمنا بالضرورة أن الحجارة لم تؤمر بشريعة ولا بعقل ولا بعث إليها نبي قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فإذا لا شك في هذا فإن القول منه تعالى يخرج على أحد ثلاثة أوجه .

أحدها أن يكون الضمير في قوله تعالى وإن منها لما يهبط رراجع إلى القلوب المذكورة في أول الآية في قوله تعالى ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قساوة الآية فذكر تعالى أن من تلك القلوب القاسية ما يقبل الإيمان يوما ما فيهبط عن القسوة إلى اللين من خشيةنا تعالى وهذا أمر يشاهد بالعيان فقد تلى القلوب القاسية بلطفنا تعالى ويخشى العاصي وقد أخبرنا أن من أهل الكتاب من يؤمن بنا وما انزل إلينا وما انزل إليهم وكما أخبرنا أن من الأعراب من يؤمن بنا من بعد أن أخبرنا أن الأعراب أشد كفرا ونفاقا

وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزلنا على رسوله فهذا وجه ظاهر متيقن الصحة .
والوجه الثاني أن الخشية المذكورة في الآية إنما هي التصرف بحكم الله تعالى وجري
أقداره كما قلنا في قوله تعالى D حاكيا عن السماء والأرض قالتا أتينا طائعين وقد بين جل
وعز ذلك موصولا بهذا اللفظ فقال جل وعز فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء
أمرها فبين الله تعالى بيانا